تنزيل الأحاديث النبوية على الواقع

"آفاق وضوابط"

إعداد

د.سليمان بن عبد الله السيف

أستاذ مشارك (تخصص الحديث الشريف)

قسم الثقافة الإسلامية– كلية التربية– جامعة حائل

ملخص البحث

يتلخص هذا البحث في الإشارة إلى بعض المجالات التي يمكن للباحث أن ينزل عليها نصوص السنة النبوية، مثل (العلوم العصرية، والفتن والملاحم وأشراط الساعة، والقيم الحضارية)، مع التفصيل في الضوابط العلمية المستمدة من الكتاب والسنة ومنهج أهل العلم في مجال التنزيل على "الفتن والملاحم وأشراط الساعة" والتي تضمن أن يكون تنزيل نصوص السنة بعيدا عن الخطأ والانحراف وأقرب إلى الصواب، وقد شملت هذه الضوابط أركان عملية التنزيل، وهي (النص المنزّل، ومنهج التنزيل، والواقع المنزّل عليه، والقائم بعملية التنزيل).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الكتاب والسنة هما مصدر كل خير للإنسان في عاجله وآجله، وهذا الخير لا يتحقق إلا إذا طبق الإنسان ما أمرا به ونهيا عنه وصدّق بما أخبرا به؛ على الطريقة التي أمرا بها وسار عليها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام ومن تبعهم من سلف هذه الأمة وأخيارها وعلمائها وفقهائها إلى يوم الدين.

ومن هنا فقد جاءت أهمية هذا الموضوع؛ وهو: تنزيل الأحاديث النبوية على الواقع؛ نظراً للحاجة الماسة في واقعنا المعاصر في شتى فروعه وعلومه وأحداثه إلى هدي السنة النبوية الذي هو خير الهدي وأحسن الهدي.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فقد كتب فيه كتابات متنوعة، من ذلك : كتاب (فقه أشراط الساعة) للشيخ محمد إسماعيل المقدم، وكتاب (العراق في أحاديث وآثار الفتن) للشيخ مشهور حسن آل سلمان، وبحث (معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة على الوقائع والحوادث) للأستاذ عبدالله ابن صالح العجيري، وغيرها.

ومع أهمية هذا الموضوع وأهمية فتح الآفاق المتاحة أمامه؛ إلا أنه يبرز سؤال مهم –هو مشكلة البحث– (هل يوجد ضوابط علمية لتنزيل النصوص النبوية على الواقع؟)

ومن هنا فقد جاءت هذه الورقة للإسهام في الإجابة عن هذا السؤال، من خلال أحد محاور هذا المؤتمر، وذلك في عنصر (آفاق تنزيل متون السنة على الواقع) تحت المحور الخامس (فقه النص الحديثي) في مؤتمر "مستقبل الدراسات الحديثية" والذي يعقد في رحاب جامعة القصيم.

واشتمل هذا البحث على: مقدمة يسيرة تكلمت فيها عن فكرة البحث ومشكلته وأهميته والدراسات السابقة فيه.

ثم أعقبت ذلك بمبحثين:

المبحث الأول: نماذج من مجالات تنزيل السنة على الواقع، واشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مجال تنزيل السنة على العلوم العصرية.

المطلب الثاني: مجال تنزيل السنة على الفتن والملاحم وأشراط الساعة.

المطلب الثالث: مجال تنزيل السنة على القيم الحضارية.

والمبحث الثاني: ضوابط تنزيل السنة على الواقع.

واشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول : ضوابط متعلقة بالنص المنزل.

المطلب الثاني : ضوابط متعلقة بمنهج التنزيل.

المطلب الثالث : ضوابط متعلقة بالواقع المنزل عليه.

المطلب الرابع : ضوابط متعلقة بمن يقوم بتنزيل النص على الواقع.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها والتوصيات.

ثم وضعت فهرساً لأهم المراجع المتعلقة بموضوع الورقة والتي قد يحتاج إليها القارئ، وأغفلت غيرها من المراجع المعروفة والمشهورة للعلم بها وطلبا للاختصار، ثم فهرسا للموضوعات.

هذا وأسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يكون هذا العمل موفقاً مسدداً وأن يجزي القائمين على هذا المؤتمر خير الجزاء على تشجعيهم الباحثين للكتابة في هذه المواضيع الهامة والنافعة.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

المبحث الأول: نماذج من مجالات تنزيل السنة على الواقع، واشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تنزيل السنة على العلوم العصرية.

المطلب الثاني: تنزيل السنة على الفتن والملاحم وأشراط الساعة.

المطلب الثالث: تنزيل السنة على القيم الحضارية.

المطلب الأول: تنزيل السنة على العلوم العصرية.

لا شك أن العلوم العصرية قد تنوعت وتعددت بشكل كبير، وأصبحت تشكل جزءاً من ثقافة المجتمع المسلم وعنايته، ومن هنا كان لا بد من ربط المفيد من هذه العلوم بالسنة النبوية بدون تكلف؛ باعتبار أن الكتاب والسنة مصدر لكل خير للمسلم في العاجل والآجل، وقد تنوعت الجهود التي قام بها المهتمون بشأن السنة النبوية في هذا المجال، ولعل من النماذج الرائدة في هذا ما قام به الأستاذ الدكتور همام عبد الرحيم سعيد من إصدار "الدليل التصنيفي لموضوعات السنة النبوية".

يقول الشيخ في مقدمة كتابه (لقد أصبح الناس جميعاً، المسلم وغير المسلم ، مهتمين بمعرفة الإسلام والاطلاع عليه، ومعرفة الحكم الشرعي والموقف من كل مسألة تعرض في مختلف القضايا والمسائل، ولم يعد الأمر مقصوراً على دارس الشريعة، بل كل متخصص يريد أن يأخذ من الإسلام ما يفيده في تخصصه، فالأطباء والصيادلة والمهندسون وعلماء الاجتماع والاقتصاد والشريعة والإعلام وغير هؤلاء يريدون معرفة الأحكام المتعلقة بهم، وهذا يستدعي إنشاء دليل تصنيفي للعلوم يصلح قاعدة معلومات للحديث الشريف وللقرآن الكريم والفقه الإسلامي والعلوم الحديثة....

وبعد النظر والتدبر وجدنا أنه لا بد من إنشاء هذا الدليل ليتحقق الأهداف التالية:...

ومنها: تلبية مطالب العلوم المعاصرة في إيجاد العناوين المناسبة وإضافتها إلى رصيد فكرنا وثقافتنا)[1]

وهذه المواضيع الرئيسية التي اعتمدها في تصنيفه:

١- العقائد.
٢- العبادات.
٣- المجتمع.
٤- الاقتصاد والمعاملات المالية.
٥- الجهاد والتعبئة العسكرية.

---

(١) الدليل التصنيفي:ص٤

٦- القضاء.
٧- التاريخ والسيرة النبوية والمناقب.
٨- الصحة.
٩- الغذاء والتغذية.
١٠- العقوبات.
١١- الدعوة (الإعلام والاتصال).
١٢- الإدارة.
١٣- علوم القرآن والحديث.
١٤- الدولة.
١٥- اللباس والزينة.

ثم قسّم هذه المواضيع إلى أقسام، وفرّع عن الأقسام فروعاً وفروع الفروع بشكل شجري على طريقة "المكانز"[٢]، مستعينا بلجان علمية متخصصة في كل موضوع من المواضيع الرئيسة؛ بحيث تحتوي اللجنة على متخصص في "العلم" المراد "كالإدارة" أو "الصحة" ونحوها مع متخصص في الحديث النبوي، وهكذا في محاولة لتصنيفٍ حديث يناسب مواضيع العصر واهتماماته.

المطلب الثاني: تنزيل السنة على الفتن والملاحم وأشراط الساعة.

من نظر في النصوص الشرعية الواردة في الفتن وأشراط الساعة يرى أنها مرتبطة بواقع معين؛ ومن هنا فإن تنزيل النصوص على الواقع المعين هو جزء من هذا النص الشرعي، وهذ التنزيل له مراتب فتارة يكون في مرتبة اليقين وذلك حينما يتطابق تماما مع النص بكل صوره وأركانه، وتارة يكون في مرتبة الظن الراجح حينما تكون الأدلة والقرائن راجحة في الدلالة عليه، وفي كلا الحالتين فإن ربط هذه النصوص بالواقع هو مجال مشروع بشرط إعمال الضوابط الشرعية التي عليها تصرفات أهل العلم.

يقول الشيخ عبد الله العجيري (فتنزيل هذه النصوص على الوقائع بضوابطه الشرعية مشروع، وعليه تصرفات جماعة أهل العلم في تناول أحاديث الفتن، تراهم إن وجدوا مناسبة للتنزيل نزلوا على ما

(٢) المكانز: هي مجموعة كلمات أو مصطلحات تستخدم في تصنيف المعلومات وتكشيفها وتخزينها واسترجاعها، وتكون عادة كلمات مفتاحية أو مصطلحات واصفة أو عناصر بيانات، وقد تكون وفق ترتيب هجائي أو تركيب هرمي). الدليل التصنيفي:ص٥.

سيأتي بيانه، بل لا تتحقق مقاصد ذكر هذه النصوص إلا بهذا التنزيل وبغيره تغدوا هذه النصوص ألفاظاً لا تؤثر في واقع ولا تزيد في إيمان، وهذا التنزيل كما سبق له ضوابط شرعية يمكن استخلاصها من تصرفات أهل العلم وهي ضمانات لجعل التنزيل شرعياً، وبغيرها يكون التنزيل تحريفا يجب أن يحجر على أهله صيانة لنور العلم وبهائه)[٣]

يقول الشيخ مشهور آل سلمان (لكن مع هذا يجب علينا أن نستفيد من الأحاديث الواردة في الفتن، بمنهج علمي منضبط، وأن نتعامل معها بعد التأكّد من صحتها وثبوتها بعدل، فلا نظلم أنفسنا بإهدارها، ولا نظلمها بأن نتعجل وقوعها...)[٤]

وسأورد بعض الأدلة التي تدل على مشروعية هذا الأمر بضوابطه الشرعية:

فمنها: بحث النبي صلى الله عليه وسلم في شأن ابن صياد، وهل هو الدجال أم لا ؟

فعن ابن عمر رضي الله عنهما «أن عمر انطلق مع النبي صلى الله عليه وسلم في رهط قِبل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أُطم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيده، ثم قال لابن صياد: «تشهد أني رسول الله؟»، فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي صلى الله عليه وسلم: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه وقال: «آمنت بالله وبرسله» فقال له: «ماذا ترى؟» قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خلط عليك الأمر» ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إني قد خبأت لك خبيئاً» فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال: «اخسأ، فلن تعدو قدرك» فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»

وقال ابن عمر: انطلق بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد، فرآه النبي صلى الله عليه

---

(٣) معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم:ص١٢-١٣.

(٤) انظر: كتاب العراق في أحاديث وآثار الفتن. مشهور آل سلمان:٦٢٠/٢. وقد أطال بعد ذلك الكلام عن خطأ فرقتين في التعامل مع أحاديث الفتن، الفرقة الأولى: فرقة أهل الجبر... والفرقة الثانية: تنكّبت أحاديث الفتن، وعملت بنصوص الوحي، ولم تنتبه إلى ما يحيط بها من أمور يجب أن تراعى في أخذ الحكم الشرعي... إلخ.

وسلم وهو مضطجع – يعني في قطيفة له فيها رمزة أو زمرة – فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد: يا صاف – وهو اسم ابن صياد – هذا محمد صلى الله عليه وسلم، فثار ابن صياد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو تَرَكتُه بيّن»(٥).

ومن ذلك أيضاً تنزيل أسماء رضي الله عنها في "الكذاب" و "المبير" الواردين في حديث « إن في بني ثقيف كذاب ومبير» على المختار الثقفي والحجاج بن يوسف الثقفي؛ كما في صحيح مسلم(٦).

المطلب الثالث: تنزيل السنة على القيم الحضارية(٧).

يعود الاشتقاق اللغوي لمصطلح "الحضارة" إلى الأصل اللغوي (حضر)، يقول ابن فارس: الحاء والضاء والراء: إيراد الشيء، وروده، ومشاهدته.

فالحضر خلاف البدو، وسكون الحَضَر الحِضارة، قال القطامي:

فمن تكن الحِضارة أعجبته.... فأي رجال بادية ترانا.

قالها أبو زيد بالكسر، وقال الأصمعي: هي الحَضارة بالفتح(٨).

وأما معناه في الاصطلاح، فإن الباحث يواجه صعوبة بالغة في الوصول إلى تعريف محدد ومطرد للحضارة، أو الوصول إلى معنى متفق عليه بين الباحثين في تعريف الحضارة؛ ويرجع هذا إلى أسباب، من أبرزها سببان:

الأول: "تعدد المدارس الفكرية التي تصدر عنها تعريفات الحضارة"(٩)

الثاني:" أن مصطلح الحضارة أصبح مصطلحاً شائعاً لدى فئات مختلفة من المتخصصين،كعلماء الفكر والفلسفة والتاريخ"(١٠).

---

(٥) أخرجه البخاري:٢/٩٣، رقم «١٣٥٤» وغيره من المواطن، ومسلم: ٤/٢٢٤٤، رقم «٢٩٣٠».

(٦) صحيح مسلم: ٤/١٩٧١، «٢٥٤٥».

(٧) انظر بحث محكم منشور للباحث بعنوان " السنة النبوية مصدر للحضارة، وسائل السلامة في السنة النبوية" أنموذجاً.

(٨) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس:ص٢٥١.

(٩) انظر: خصائص الحضارة الإسلامية. لعبد العزيز التويجري:ص١٢.

وإذا نظرنا إلى هذه التعاريف وغيرها كثير[١١] يمكننا أن نقول: إن الحضارة تطلق عند من يستعملها من مختلف المشارب والمدارس على ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: مظاهر التقدم والرقي في الجانب المادي بكل أنواعه وصوره.

العنصر الثاني: مظاهر التقدم والرقي في الجانب التنظيمي والقانوني مما ينظم حياة الإنسان ويكفل حقوقه ويوفر له الأمن والطمأنينة.

العنصر الثالث: مظاهر التقدم والرقي في الفكر والسلوك المبني على العقيدة الصحيحة التي تثمر العمل الصالح والذي يضمن له سعادة الدارين[١٢].

ولا شك أن السنة النبوية قد احتوت هذه العناصر بله أثرتها وعززتها في المسلمين أفراداً وجماعات؛ ويكفي لتقرير هذه الحقيقة واستجلائها لفت النظر إليها ليجد الباحث نفسه أمام منظومة حضارية شاملة جاءت بها سنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-[١٣]، إلا أن ذلك لا يمنع من إيراد الأدلة التي قد تفيد المتردد في تقرير هذه الحقيقة ليدفعه ذلك إلى معين السنة النبوية ومنهجها الحضاري العظيم، ومن تلك الأدلة ما يأتي:

أولاً: ما نطقت به آيات الكتاب العزيز من أن الله بعث نبيه -صلى الله عليه وسلم- ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[الجمعة:٢]

---

(١٠) انظر: علماء الشريعة وبناء الحضارة. لعبد الله الطريقي :ص١٢.

(١١) انظر: الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل. لمحمد ضناي، فقد ناقش تعريفات الحضارة، وتأثير التوجهات والمشارب في تحديد مفهومها ، وخلص إلى تعريف يعتقد أنه متجرد من الخلفيات والمعطيات الفكرية، فقال (الحضارة مصطلح يعني تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما، في مكان معين وفي زمن محدود أو أزمان متعاقبة، ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة) . انظر البحث :١/ ٥٢١-٥٢٩.

(١٢) انظر: الحضارة الإسلامية. لعبد الرحمن حبنكة الميداني:ص١٩-٢٠.

(١٣) أقيمت ندوة بعنوان "السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة" نظمتها مؤسسة آل البيت في الأردن بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن في الفترة من ١٥-١٨/ ذي القعدة لعام: ١٤٠٩هـ.، كما نظمت ندوة الحديث الشريف بكلية الدراسات الإسلامية بدبي ندوة بعنون " القيم الحضارية في السنة النبوية".عام:١٤٢٨هـ.

وقال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ...﴾ الآية[الأعراف:١٥٧]

والمعروف: كل ما تعارف عليه الشرع والعقل، والمنكر: ما أنكره الشرع والعقل.

إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى الجليل.

ثانياً: ما جاء في القرآن الكريم بأن الله تعالى نزل في الكتاب تبيان كل شيء، قال تعالى ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ....﴾ الآية [النحل:٨٩]

قال ابن مسعود: وقد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

قال ابن كثير: وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس محتاجون في أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم(١٤).

هذا وقد تقرر أن سيرته -صلى الله عليه وسلم- هي متمثلة القرآن، وأن سنته هي شارحته، قال الله تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤]

إذن فسيرته وسنته هي تطبيق القرآن وقد جاء بكل خير في العاجل والآجل(١٥).

ثالثاً: ما نتج عن هذه الحقيقة - وهي كون السنة مصدراً للحضارة — من حضارة إسلامية عظيمة، كانت نتيجة طبيعية لأمة امتثلت ما جاء به نبيها -صلى الله عليه وسلم- من الخير والصلاح

(١٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير:٤/٥٩٤-٥٩٥.

(١٥) انظر كلاما نفيسا لابن القيم آثرت عدم نقله للاختصار في : بدائع الفوائد لابن القيم:٣/١٠٩١-١٠٩٥.

في أمر الدنيا والآخرة[١٦] ، وكانت حضارة متميزة لم تسبقها أمة من الأمم إلى شيء منها وخاصة فيما يتعلق في مجال العقيدة والسياسة والاقتصاد والتربية والمرأة والعلاقات الدولية والرق والتشريع والقضاء والأخلاق؛ ولذا يسمى بعض الباحثين الحضارة الإسلامية هذه "حضارة الابتكار" أي إنها لم تسبقها أمة إليها ولن تسبقها في مستقبلها، وهناك جوانب أخرى من الحضارة في الأمور التجريبية قام بها المسلمون امتداداً وتحسيناً لجهد بشري سابق ويعدُّ دور الحضارة الإسلامية فيها التجديد والتحسين، ويسميها بعض الباحثين(حضارة البعث والإحياء)[١٧]، فجمعت الحضارة الإسلامية بين الابتكار والتجديد.

(١٦) انظر: المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية. لمحمد حمزة إسماعيل:ص٢٧.

(١٧) انظر: موسوعة الحضارة:١/٢٣-٢٥، موسوعة التاريخ الإسلامي:١/٥٣-٥٤. كلاهما لأحمد شلبي.

المبحث الثاني: ضوابط تنزيل السنة على الواقع(١٨).

وينقسم إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول : ضوابط متعلقة بالنص المنزل.

المطلب الثاني : ضوابط متعلقة بمنهج التنزيل.

المطلب الثالث : ضوابط متعلقة بالواقع المنزل عليه.

المطلب الرابع : ضوابط متعلقة بمن يقوم بتنزيل النص على الواقع.

(١٨) وقد كتب في جمع هذه الضوابط عدد من العلماء والباحثين؛ منهم الشيخ محمد إسماعيل المقدم في كتابه (فقه أشراط الساعة)، والشيخ مشهور حسن آل سلمان في كتابه "العراق في أحاديث وآثار الفتن"، و بحث "معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة على الوقائع والحوادث"، عبدالله بن صالح العجيري، وقد أفدت منها كلها، كما أفدت من بحث قدمه الطالب/ سعود بن سلامة الهقص كبحث فصلي اثناء دراسته مادة " الحديث الموضوعي" والتي كنت أشرف عليها في الدراسات العليا في جامعة حائل.

المطلب الأول : ضوابط متعلقة بالنص المنزل:

١- الاقتصار على نصوص الوحيين.

إن من نعمة الله تعالى ورحمته أن وحد لنا مصادر التلقي التي نأخذ عنها الدين والإيمان ومنهج الحياة لنصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وهذه المصادر فيها الهدى والكفاية والرشد، قال الله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ....﴾ الآية [النحل:٨٩]

قال ابن مسعود: وقد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

قال ابن كثير: وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس محتاجون في أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم((١٩)).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة عرفة كما في حديث جابر «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله»(٢٠)

وهذا أصل مقرر عند السلف رحمهم الله تعالى؛ ولذا كانوا يتعاظمون إذا رأوا من يعتمد مصدراً غير الوحيين في أمر الدين والإيمان، فعن عمرو بن ميمون قال: (كنا جلوسا في مسجد الكوفة وذاك أول ما نزل فأقبل من نحو الجسر رجل معه كتاب قلنا: ما هذا؟ قال هذا كتاب. قلنا: وما كتاب؟ قال: كتاب دانيال فلولا أن القوم تحاجزوا لقتلوه وقالوا: كتاب سوى القرآن؟ أكتاب سوى القرآن؟)(٢١)

---

(١٩) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير:٤/٥٩٤-٥٩٥.

(٢٠) أخرجه مسلم في صحيحه:٢/٨٨٦، رقم «١٢١٨».

(٢١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع:٢/١٦٢. ط: دار المعارف. الطحان.

وتقرير هذا الأصل من المعلوم من الدين بالضرورة، ومع ذلك فقد وقعت المخالفة في هذا الباب كثيراً، فاعتمد البعض على غير الوحيين من المصادر التي لا تغني ولا تسمن من جوع[٢٢].

٢- **التحقق من ثبوت النص المنزل.**

لا ريب أن ثبوت النص والمراد به هنا الحديث أصل عظيم تقوم عليه عملية التنزيل، فإن التنزيل على حديث ضعيف أو موضوع يعتبر باطلاً لاغياً، قال ابن قدامة المقدسي (وأما الأحاديث الموضوعة التي وضعتها الزنادقة ليلبسوا بها على أهل الإسلام أو الأحاديث الضعيفة إما لضعف رواتها أو جهالتهم أو لعلة فيها لا يجوز أن يقال بها ولا اعتقاد ما فيها بل وجودها كعدمها وما وضعته الزنادقة، فهو كقولهم الذي أضافوه إلى أنفسهم)[٢٣].

والمرجع في بيان الحديث الثابت من الضعيف هو إلى أهل العلم بالحديث؛ لأنهم المعروفون المعتنون به، كما يرجع إلى أهل اللغة فيما يخصهم وهكذا في كل علم، قال الخطيب البغدادي عن أهل الحديث: (يقبل منهم ما رووا عن الرسول وهم المأمونون عليه والعدول، حفظة الدين وخزنته وأوعية العلم وحملته، إذا اختُلف في حديث؛ كان إليهم الرجوع فما حكموا به فهو المقبول المسموع)[٢٤]

ومما ينبغي التحري فيه أثناء التنزيل الأحاديث المتعلقة بالفتن والملاحم وأشراط الساعة؛ فإن الكذب فيها كثير في القديم والحديث، يقول الإمام أحمد رحمه الله (ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير) قال الخطيب البغدادي معلقا على كلام الإمام أحمد: (وهذا الكلام محمول على وجه؛ وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها ولا موثوق بصحتها لسوء أحوال مصنفيها وعدم عدالة ناقليها وزيادات القصاص فيها، فأما كتب الملاحم فجميعها بهذه الصفة

---

(٢٢) انظر: دراسة بعض المصادر التي اعتمد عليها البعض لتنزيل النصوص الشرعية على الواقع (الإسرائيليات، الرؤى والمنامات، علوم الكهانة والتنجيم) في : "فقه أشراط الساعة"، لمحمد إسماعيل في فصول متنوعة في الكتاب، " معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم" لعبد الله العجيري: ص٣٥-٦٦.

(٢٣) كتاب ذم التأويل لابن قدامة:ص١٠٠.ط: الدار السلفية.

(٢٤) شرف أصحاب الحديث. للخطيب البغدادي:ص٩. ط:دار إحياء السنة. أنقرة.

وليس يصح في ذكر الملاحم المرتقبة والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة اتصلت أسانيدها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم)[٢٥]

ومن الكتب المشهورة في هذا الباب كتاب "الفتن" المنسوب إلى نعيم بن حماد الخزاعي، قال عنه الحافظ الذهبي (وقد صنف كتاب "الفتن" فأتى فيه بعجائب ومناكير)[٢٦]

هذا في القديم وأما في العصر الحديث فيوضح لنا ذلك الشيخ محمد إسماعيل في معرض رده على العابثين في تنزيل أشراط الساعة من المعاصرين في فصل عقده في "أدلة هؤلاء العابثين الذين يستقون منها تحريفاتهم"، قال وفقه الله (وهذه الآفة "قاسم مشترك" بين الخائضين بالظن في أشراط الساعة، فهم يوردون الأحاديث الضعيفة والباطلة، ثم يؤسسون عليها توقعاتٍ وأحكامًا، متناسين أن التفسير فرع التصحيح، ولو أعملنا قول بعض السلف: "أثبت العرش ثم انقش"؛ لطرح ذلك عن كاهلنا عبئًا ثقيلًا من هذه المرويات الباطلة، ولأرحنا واسترحنا من عناء الجواب عما يطرأ بسببها من إشكالات وتوقعات)[٢٧]

٣- التحقق من معنى النص.

لا بد في عملية تنزيل الأحاديث على الواقع وربطها به من التحقق من فهم الأحاديث فهماً صحيحاً بعيدا عن الخطأ والشطط، ويكون هذا التحقق بأمور؛ أهمها:

أ- فهم النصوص على مقتضى فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين، فنحن كما نجزم أنهم حفظوا لنا حروف القرآن والسنة، فقد أدوا لنا معانيها الصحيحة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه وقد بلغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه)[٢٨]؛ ولذا كان السلف رضوان الله عليهم يسألون عما يشكل عليهم فهمه، وقد أذن لهم القرآن بهذا بعد أن نهاهم عن الأسئلة التي لا فائدة منها والتي قد تجرهم إلى

---

(٢٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع:١٦٢/٢.

(٢٦) سير أعلام النبلاء:٦٠٩/١٠. ط: الرسالة

(٢٧) فقه أشراط . لمحمد إسماعيل:ص١٥٧. ط:دار الصميعي.

(٢٨) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥٣/١٧، وانظر: بحث "فهم السلف وأهميته في فهم السنة" للدكتور: عبد الله بن وكيل الشيخ، بحث منشور في ندوة "فهم السنة النبوية" الضوابط والإشكالات. والتي أقيمت في الرياض بتاريخ: ١٤٣٠/٦/٤.

الكفر والعصيان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ ﴾[المائدة] قال الشيخ ابن سعدي:﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ أي: وإذا وافق سؤالكم محله فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبد لكم، أي: تبين لكم وتظهر، وإلا فاسكتوا عمّا سكت الله عنه)، وقد كان الصحابة حريصين على تفهم معاني أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسؤاله عما يشكل عليهم مما يتعلق بأحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٢٩]

ب- أن تُفهم النصوص على مقتضى اللغة العربية والتي هي لغة القرآن والسنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين)[٣٠]

وفهم النص بمقتضى اللغة العربية يشمل:

- معرفة ألفاظها ومعانيها.
- معرفة أساليب العرب في كلامها.
- معرفة مباني الأسماء، وتصريف إعرابها[٣١].

---

(٢٩) أخرجه البخاري في صحيحه: ٨/١٠٤، رقم «٦٤٩٦».

(٣٠) اقتضاء الصراط المستقيم:١/٤٥٠، وانظر: بحث "اللغة العربية وأهميتها في فهم السنة" للدكتور: عبد الله بن وكيل الشيخ، بحث منشور في ندوة "فهم السنة النبوية" الضوابط والإشكالات. والتي أقيمت في الرياض بتاريخ: ٤/٦/١٤٣٠.

(٣١) انظر: بحث " الإشكالات المعاصرة في فهم السنة النبوية: اتباع الهوى، الجهل باللغة العربية" للدكتور: محمد بن عمر بازمول. بحث منشور في ندوة "فهم السنة النبوية" الضوابط والإشكالات. والتي أقيمت في الرياض بتاريخ: ٤/٦/١٤٣٠.

إذا تبين ما سبق من أهمية (التحقق من معنى النص) فلنضرب على ذلك مثلاً يبين أثر فهم النص على تنزيله وربطه بالواقع:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتل القتل - حتى يكثر فيكم المال فيفيض»[٣٢]، فقد اختلف العلماء في تفسير (تقارب الزمان) على أقوال كثيرة: فمنهم قال: تقارب أحوال أهل الزمان، ومنهم من قال: هو كناية عن اسلتذاذ العيش، ومنهم من قال: نزع بركة الزمان، ومنهم من قال: هو تقارب حسي، ولا شك في أثر هذا التفسير على تنزيله على الواقع فمن رأى تفسيراً معيناً ورجحه فإنه يبحث عن مدى تطابقه مع الواقع الذي يعيش فيه ليعلم مدى تحقق هذا الشرط من أشراط الساعة[٣٣]، ومن هنا يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله فيما نقله عن ابن أبي جمرة: (فالقِصر يحتمل أن يكون حسياً ويحتمل أن يكون معنوياً أما الحسي فلم يظهر بعد ولعله من الأمور التي تكون قرب قيام الساعة، وأما المعنوي فله مدة منذ ظهر)[٣٤]

(٣٢) أخرجه البخاري:٢/٣٣، رقم «١٠٣٦» وغيره من المواضع، ومسلم: ١/١٥٧، رقم «١٥٧».

(٣٣) انظر: معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن. للعجيري:ص٧٩.

(٣٤) فتح الباري:١٣/١٧.

المطلب الثاني: ضوابط متعلقة بمنهج التنزيل.

١- الأصل حمل النصوص الشرعية على ظاهرها :

من قواعد أهل السنة المقررة أن الأصل أن يحمل النص على ظاهره، وأن الظاهر مراد، وأن الظاهر ما يتبادر إلى الذهن من المعاني، وأنه لا يخرج عن هذا الظاهر إلا بدليل، فإن عُدم الدليل كان الحمل على الظاهر هو المتعين، والحمل على خلافه تحريف، فالنصوص الشرعية نصوص هداية ورحمة لا نصوص إضلال، فلو قدر أن المتكلم أراد من المخاطب حمل كلامه على خلاف ظاهره وحقيقته من غير قرينة ولا دليل ولا بيان؛ لصادم هذا الفعل مقصود الإرشاد والهداية، وإن ترك المخاطب -والحالة هذه- بدون ذلك الخطاب خير له وأقرب إلى الهدى(٣٥).

ولذا فينبغي الحذر من الوسائل المبتدعة التي تخرجنا عن هذا الأصل العظيم؛ ولعل من أخطر هذه الوسائل وأكثرها انتشاراً؛ ما يسمى "بالمجاز" أو " التأويل" ولا شك في خطر هذين الوسيلتين وأثرهما الكبير في إبطال النصوص الشرعية.

ولنضرب على ذلك مثالاً من الواقع في تسليط التحريف -الذي يسمى المجاز أو التأويل- على النصوص الشرعية بدعوى معارضة المعقول حتى تخرجها عن مراد الشارع ومقصوده، فمن ذلك ما قاله بعض المتأخرين في تحريف معنى "نزول المسيح عيسى بن مريم" عليه السلام، قال (تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها، وهو حكمتها وما شرعت لأجله، فالمسيح - عليه السلام - لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى - عليه السلام - ...إلى آخر كلامه) قال الشيخ رشيد رضا بعد نقله هذا الكلام عن شيخه محمد عبده (ولكن ظاهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه)(٣٦)

---

(٣٥) معالم ومنارات للعجيري:ص٨٧، وانظر: الصواع المرسلة. لابن القيم:١/٣١٠.

(٣٦) انظر: تفسير المنار:٣/٢٦١.

٢- أن يكون تنزيل النصوص عاريا عن التكلف(٣٧).

يجب أن يكون تنزيل النص على الواقع بعيداً عن التكلف؛ لأن هذا هو طبيعة هذا العلم والوحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص]، وعن مسروق، قال: «كنا عند عبد الله -يعني ابن مسعود- جلوساً، وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كندة يقص ويزعم، أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، فقال عبد الله: وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئاً، فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول: لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص]، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً، فقال: «اللهم سبع كسبع يوسف» قال: فأخذتهم سَنة حصت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله عز وجل: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان: ١١] إلى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ [الدخان: ١٥]، قال: أفيُكشف عذاب الآخرة؟ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ١٦] فالبطشة يوم بدر، وقد مضت آية الدخان، والبطشة واللزام، وآية الروم(٣٨)».

فالأصل إذاً أن يكون انطباق النص على الواقع انطباقاً بيناً واضحاً، لا يحتاج معه إلى تكلف أو تمحل، فتظهر المطابقة للعالم ويتفهما العامي وكما قيل (إن التكلف في تطبيق النص على الواقع أمارة

(٣٧) انظر أمثلة لما وقع به بعض المعاصرين من التكلف في تنزيل النصوص مع الرد عليها في رسالة " تنبيهات على رسالتين للشيخ أبي بكر الجزائري" للشيخ حمود التويجري رحمه الله تعالى.

(٣٨) أخرجه البخاري:٦/١١٤، رقم «٤٧٧٤» وغيرها من المواضع، ومسلم:٤/٢١٥٥، رقم «٢٧٩٨».

على عدم صحة التنزيل)[٣٩]، ويتأكد هذا فيما للشارع قصد في معرفته وتنزيله من قضايا كبرى، ليتحقق مقصوده من ذكر هذه النصوص، وذلك كمعرفة المسيح الدجال، والمسيح ابن مريم مثلاً، فمن تأمل أحاديث الدجال وجدها بينة واضحة في هذا المعنى ومن استقصاها علم مقدار عناية الشريعة بفتنته والتحذير منه حتى صارت محلا للتحذير من جميع الأنبياء والرسل، وزاد النبي صلى الله عليه وسلم أمته بيانا ليعرفوه على الحقيقة ولا يشتبه أمره عليهم قال صلى الله عليه وسلم: «ما كانت فتنة ولا تكون حتى تقوم الساعة أكبر من فتنة الدجال، ولا من نبي إلا وقد حذر أمته، ولأخبرنكم بشيء ما أخبره نبي أمته قبلي» ثم وضع يده على عينه، ثم قال: «أشهد أن الله عز وجل ليس بأعور»[٤٠]، فتأمل عنايته صلى الله عليه وسلم في بيان أمر الدجال بالإخبار بأمر لم يخبر عنه نبي قبله، ووضعه يده على عينه تأكيدا ومزيد بيان.

فلا يصح أن يكون أمره بعد هذا البيان كله مجالاً للتكلف ولي أعناق النصوص حتى توافق أمره بل يجب أن يكون الأمر أسهل من ذلك وانطباق النصوص عليه أظهر ما يكون[٤١].

ومن التكلف المذموم في تنزيل النصوص على الواقع وخاصة في نصوص "أشراط الساعة" و" الفتن" "والملاحم" تحديد تواريخ وقوع هذه الأحداث كما ابتلي به كثير من المعاصرين، وقد ذكر الشيخ محمد إسماعيل فصلا في كتابه أورد فيه أمثال هذا الرجم بالغيب وقال في مقدمة هذا الفصل ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾**﴾ [النجم] نورد فيما يلي نماذج من تنبؤات بعض العابثين بأشراط الساعة، وبدون تعليق غالباً؛ لأنها في قسم كبير منها تهاوت، وانهارت حين خيبت الأيام ظنونهم، وأخلفت وعودهم، وصدق الشاعر:

كل من يدعي بما ليس فيه ... فضحته شواهد الامتحان)[٤٢]

قال القرطبي بعد أن أورد بعضاً من الأحاديث الموضوعة التي تحدد بعض تواريخ الأحداث: (كل ما جاء في هذا الحديث فمذكور في حديث حذيفة وغيره، وإنما المنكر منه تعيين التاريخ...) ثم قال:

---

(٣٩) معالم ومنارات للعجيري:ص٩٢.

(٤٠) رواه الإمام أحمد في المسند «١٤١١٢» ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٠٨١.

(٤١) انظر: معالم ومنارات:٩٠-٩١

(٤٢) فقه أشراط الساعة:ص٨٩.

(والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب أن ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن والكوائن أن ذلك يكون، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة فلا يعلم أحد أي سنة هي ولا أي شهر)(٤٣)

٣- مراعاة الألفاظ الشرعية :

وهذا الضابط سبق الإشارة إلى بعض معناه، ولكني أفرده لأهميته، ولاندراج عدد من الفروع تحته، وخاصة أن بعض المؤلفات قد امتلأت، وسودت صفحاتها بكميات كبيرة من الألفاظ الأجنبية، والمصطلحات الغربية، والتي نزّلت على نصوص الفتن وأشراط الساعة، ورتّب على ذلك أحكام ولوازم.

وإن إسقاط المتعارف عليه عند المتأخرين على نصوص الكتاب والسنة أو الآثار دون التنبه لأصل المصطلح وما يطلق عليه خطأ كبير، فمن ذلك إطلاق لفظة (هرمجدون) وهي لفظة كثر ترددها للتعبير عما عبرت عنه الشريعة بالملاحم أو الملحمة حتى غدت هذه اللفظة عنواناً لبعض المصنفات الإسلامية، والله المستعان، فالتعبير باللفظ الشرعي لا شك أولى، يدل على هذا الأصل في عدم تغليب الألفاظ الخارجة عن الشريعة على ألفاظ الشريعة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم إلا أنها العشاء وهم يعتمون بالإبل) ولفظ ابن ماجه: (لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم زاد ابن حرملة فإنما هي العشاء وإنما يقولون العتمة لاعتامهم بالإبل)(٤٤)، وغيرها من النصوص الدالة على هذا المعنى(٤٥).

٤-أن يكون النص حكماً على الواقع، وليس العكس.

وهذه القاعدة فرع عن القاعدة الشرعية الكبرى والتي يقوم عليها الإيمان الكامل؛ (التسليم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم) والتي يترتب عليها (تعظيم النص الشرعي)؛ ولذا (فإن كثيراً من المتكلمين في هذا الباب عكس الأمر فجعل من الواقع حكماً على النص، فوقع في ألوان من الانحراف والخطأ فمنهم من يحكم ببطلان النص، أو يعطل دلالته، أو يتأوله على غير وجهه، والأصل أن يتفهم المرء

---

(٤٣) التذكرة ١٢٢٢/٣.

(٤٤) رواه مسلم: ٤٤٥/١، رقم «٦٤٤» ، وأبو داود: ٢٩٦/٤، رقم« ٤٩٨٤» ، والنسائي: ٢٧٠/١، رقم «٥٤٢» ، وابن ماجة:٤٤٩/١-٤٤٥٠، رقم «٧٠٤» .

(٤٥) انظر: معالم ومنارات: ص١٠٨،

الحديث أولاً، فإن تبين معناه تطلبه من الواقع، أما أن يعكس القضية فيجعل الواقع أصلاً والنص فرعاً ويحكم هذا الأصل على هذا الفرع فهو مظنة الانحراف والخطأ؛ ولذا وجد من قد يُكذب بالخبر لسيطرة الواقع الحاضر الملموس عليه، وقد يكون تحقق النص بعيداً عن واقعه الحاضر، ويكون المقصود حادثة وقعت في ماض، أو حادثة ينتظر وقوعها في مستقبل تتهيأ فيه الظروف والأحوال لوقوع النص، فالتكذيب والحالة هذه انحراف، وهو فرع من فروع قاعدة الشر؛ تقديم العقل على النقل)[٤٦]

٥- **التفريق عند التنزيل بين ما يقطع بتحققه وبين ما يكون في دائرة الظن.**

لا بد أن نعرف أن عملية تنزيل النصوص وربطها بالواقع هي عملية اجتهادية تقوم بعد استكمال أدواتها المعتبرة، إلا أن ذلك لا يمنع من وقوع الخطأ فيها وعلى هذا، فينبغي أن يعطى كل تنزيل حقه من القطع والظن بحسب ما قام به من أدلة، ومن أمثلة ذلك؛ نصوص الفتن وأشراط الساعة، نجد أنها ليست على درجة واحدة من جهة تحققها في الواقع ودلالتها عليه، فمنها ما يكون مقطوعاً بتحققه ومنها ما يكون أقل من ذلك، ومنها ما يكون في دائرة الظن والترقب .

وكل ذلك إنما يقوم بنفس الباحث، وسببه اختلاف الباحثون في مطابقة النص للواقع والحدث.

ولذا ينبغي أن يكون تنزيل الباحث من قبيل الظن الراجح، ولا يقطع به؛ لأنه نوع من الاجتهاد، إلا إذا وقع الاجماع على قطعية نص على حدث أو واقعة أو شخص معين فإنه يقطع به .

فمثال ما وقع الإجماع على تنزيله على واقعة معينة ما ورد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت للحجاج إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: («إن في ثقيف كذاباً ومبيراً» فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه[٤٧]) قال النووي (واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد وبالمبير الحجاج بن يوسف والله أعلم)[٤٨]

---

(٤٦) انظر : معالم ومنارات:ص١٠٥..

(٤٧) أخرجه مسلم: ٤/١٩٧١، رقم «٢٥٤٥».

(٤٨) شرح النووي على مسلم:١٦/١٠٠

ومثال ما وقع الجزم به لحدوثه لشخص معين عيّنه النص؛ ما حصل لعمار بن ياسر وقتل الفئة الباغية له، فقد حصل تعين الفئة الباغية[٤٩] بسبب قتلها لعمار بن ياسر رضي الله عنه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عمار تقتله الفئة الباغية[٥٠]».

وقد يكون التنزيل في بداية الأمر في منزلة الظن الراجح، ثم يتحول إلى منزلة اليقين حينما يتطابق الواقع تماما مع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، كما هو ظاهر الواقع في قتال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للخوارج؛ لأنه لم يقاتلهم ابتداء حتى سفكوا الدم الحرام ونهبوا الأموال[٥١]، ثم تطلب بعد ذلك العلامات اليقينية في أحوالهم والتي من أظهرها وجود "ذو الثدية" بينهم[٥٢].

وقد يكون التنزيل في بداية الأمر بمنزلة الشك، ثم بعد ذلك يتحول إلى اليقين؛ كما حصل لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في "وقعة الجمل"[٥٣]

٦- أن يكون التنزيل مما تتحمله عقول الناس.

من المقرر شرعاً أنه ليس كل ما يعلم يقال، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة في غير ما حديث عن التحديث ببعض الأحاديث مخافة فتنة الناس، وكان الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج العظيم، قال ابن مسعود رضي الله عنه (ما أنت محدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان

---

(٤٩) نقل الحافظ ابن رجب عن يعقوب بن شيبة الدسوسي في "مسند عمار" من "مسنده" : سمعت أحمد بن حنبل سئل عن حديث النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في عمار: «تقتلك الفئة الباغية» فقال أحمد: كما قال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «قتلته الفئة الباغية» . وقال: في هذا غير حديث صحيح، عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وكره أن يتكلم في هذا بأكثر من هذا. (فتح الباري لابن رجب:٣/٣١٠)

(٥٠) أخرجه البخاري: ١/٩٧، «٤٤٧» من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم:٤/٢٢٣٥،«٢٩١٥» من حديث أبي سعيد قال : أخبرني من هو خير مني، وفي رواية قال (أبو قتادة)، وأخرجه مسلم: ٤/٢٢٣٦ أيضا «٢٩١٦» من حديث أم سلمة.

(٥١) انظر: مجموع الفتاوى لان تيمية:٣/٢٨٢، وقال الشيخ أيضاً في موضع آخر (٢٨/٤٩٩) (ولهذا ترك علي قتلهم أول ما ظهروا لأنهم كانوا خلقاً كثيراً وكانوا داخلين في الطاعة والجماعة ظاهرا لم يحاربوا أهل الجماعة ولم يكن يتبين له أنهم هم).

(٥٢) انظر البداية والنهاية في سياقه للاحاديث الواردة عن علي رضي الله عنه في قتال الخوارج: ١٠/٥٩٢-٦٠٧. ط:هجر.

(٥٣) أخرجها أحمد في المسند: ٤٠/٢٩٨-٢٩٩، «٢٤٢٥٤». قال الحافظ ابن حجر: أسنادها على شرط الصحيح.

لبعضهم فتنة)[٥٤] وقال وهب بن منبه: (ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام وكذلك ينبغي للعالم أن يحدث كل قوم بما تحتمله قلوبهم وعقولهم من العلم)[٥٥]

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يمتنع عن التحديث بجراب الأحاديث التي فيها الفتن؛ لأنها لا تحتمله عقول الناس، قال رضي الله عنه: (حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[٥٦])

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (بل كان في ذلك الجراب أحاديث الفتن التي تكون بين المسلمين فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم بما سيكون من الفتن التي تكون بين المسلمين ومن الملاحم التي تكون بينهم وبين الكفار، ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك: قال ابن عمر: (لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتهدمون البيت وغير ذلك لقلتم: كذب أبو هريرة) فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها؛ لأن ذلك مما لا يحتمله رؤوس الناس وعوامهم)[٥٧]

وقال القرطبي: (ودلت أحاديث هذا الباب على أن الصحابة رضي الله عنهم كان عندهم من علم الكوائن إلى يوم القيامة العلم الكثير، لكن لم يشيعوها إذ ليست من أحاديث الأحكام وما كان فيه شيء من ذلك حدثوا به وتقصروا عنه)[٥٨]

فإذا كان تنزيل النصوص على الواقع لا تتحمله عقول الناس فإنه لا ينبغي نشره ولا إذاعته، لا سيما أنه قد يترتب عليه مفاسد عدة، منها:

١- ترك العمل والقعود انتظاراً لمثل هذا الحدث وترقب وصوله.

٢- تهيئة الجو للأفاكين والكذابين الذين يدعون انطباق هذه التنزيلات عليهم مثل مدعي المهدية.

---

(٥٤) رواه مسلم في مقدمة صحيحه:١/١١.

(٥٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع:٢/١٠٩.

(٥٦) أخرجه البخاري في صحيحه:١/٣٥، «١٢٠».

(٥٧) مجموع الفتاوى:٢/٢١٨.

(٥٨) التذكرة:٢/١١١٢.

٣- أنه يهيئ الجو للطاعنين في الدين بدعوى معارضة الواقع للنصوص الشرعية[٥٩]

المطلب الثالث : ضوابط متعلقة بالواقع المنزل عليه.

١- التحقق من طبيعة الواقع

المقصود من تفهم هذا الواقع التعرف على الصورة الكاملة للواقع بكل جزئياته بحيث يعلم مدى تطابق الحديث مع هذا الواقع وإلى أي مدى وقع التخالف إن كان، فإن كانت المطابقة تامة كان التنزيل ببقية الضوابط صحيحاً وإلا كان التنزيل غير صحيح[٦٠].

وقد أصّل لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ؛ عندما ذهب ليتحقق من "ابن صياد" ومدى تحقق أوصاف الدجال فيه، وقد جاءه النبي صلى الله عليه وسلم واختبره، ثم بعد ذلك اختبأ له ليسمع ما يقول[٦١].

ولذا فإنه يتأكد استكمال صفات الواقع الذي يتم عليه التنزيل إذا كان يتعلق بشيء من الأمور الغيبية؛ مثل أشراط الساعة، ويمكن أن نقسم الوقائع التي يُراد التنزيل عليها إلى قسمين:

الأول: وقائع ماضية.

الثاني: وقائع مستقبلة.

أما الأولى: وهي الوقائع الماضية، فلا بد من أن تكتمل صفات النص فيها تماماً، فإن تخلفت صفة لم يصح التنزيل، مثال ذلك (قتال الترك) كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة، قال النووي (وقد وجدوا في زماننا هكذا وفي الرواية الأخرى (حمر الوجوه) أي بيض الوجوه مشوبة بحمرة وفي هذه الرواية (صغار الأعين) وهذه كلها معجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع

---

(٥٩) انظر: معالم ومنارات للعجيري:ص١٣٩.

(٦٠) انظر: معالم ومنارات للعجيري:ص٩٣.

(٦١) خرج ذلك كله البخاري في صحيحه:٢/٩٣، «١٣٥٤، ١٣٥٥» وغيرها من المواضع، ومسلم:٤/٢٢٤٤، «٢٩٣٠، ٢٩٣١»، من حديث ابن عمر، وأخرجوه أيضا من طريق غيره.

صفاتهم التي ذكرها صلى الله عليه وسلم صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الآنف عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة ينتعلون الشعر فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا وقاتلهم المسلمون مرات وقتالهم الآن ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم وأمر غيرهم وسائر أحوالهم وإدامة اللطف بهم والحماية وصلى الله على رسوله الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى)[٦٢]

وأما الثانية: وهي الوقائع المستقبلة؛ فهي نوعان أيضا:

النوع الأول: ما تخلف في الواقع بعض الصفات الواردة في النص، ومع ذلك لا يمكن تحققها في المستقبل فهنا لا يصح التنزيل بحال، مثل أن يدعي المهدية من ليس من (آل البيت) أو من ليس اسمه (محمد بن عبد الله).

النوع الثاني: ما تخلف في الواقع وأمكن تحققه في المستقبل، فالتنزيل هنا محتمل، وهو مما يتفاوت قوة وضعفا ويحتاج إلى اجتهاد خاص من مؤهل، وبسبب عدم الجزم بتحقق بقية الصفات في المستقبل يكون التنزيل متردداً محتملاً غير مجزوم به، فإن قوي في نفس العالم التنزيل فلا يصح له أن يجزم به أو يقطع، إلا أن يقوم دليل قاطع على أن ما ينتظر تحققه سيتحقق، مثاله:

من تأمل أحوال المهدي في مبادئ أمره يجد من الصفات ما يمكن أن يكون مشاركاً لغيره فيها فلا يصح الجزم بكونه المهدي ككونه من ولد فاطمة وأن يكون اسمه محمد بن عبدالله، لكن من صفاته ما يدل دلالة قطعية على أنه هو المهدي المعني والمراد؛ كصلاة المسيح عيسى بن مريم خلفه، وخروج الدجال في زمانه، فمتى تحققت مثل هذه الصفات الخاصة به والتي لا تتحقق لغيره كان تنزيل النصوص عليه بيناً ظاهراً وصار ما يتوقع من شؤونه وأحواله بعد ذلك متحققاً مجزوماً به، كقتل المسيح ابن مريم المسيح الدجال وكثرة الخير في زمانه وما يتلو ذلك من أحداث كخروج يأجوج ومأجوج وهكذا[٦٣].

٢- عدم محاكمة نصوص المستقبل للواقع الحالي.

من الأخطاء التي يمارسها بعض المشتغلين بتنزيل النصوص على الواقع محاكمة الشرط أو الفتنة أو الملحمة الآتية في ضوء ما يعيشه هو من أحوال، فينبغي التنبه إلى أن لكل زمان أحواله وظروفه، وأن

(٦٢) شرح النووي على مسلم:١٨/٣٧-٣٨.

(٦٣) انظر: معالم ومنارات للعجيري:٩٧-١٠١.

الواجب التسليم للنصوص الشرعية وحملها على ظواهرها وإن لم نعقل كيف سيكون هذا الواقع المستقبلي على جهة التفصيل، بل نحكم ونؤمن بما تضمنه النص وما زاد عن ذلك فاجتهاد يعتريه الصواب والخطأ، ومن لم يراع هذا الأصل وقع في رد بعض النصوص توهما أنها مستحيلة أو ممتنعة ثم تكشف الأيام أن الامتناع متوهم وأن ما تضمنه النص ممكن بل واقع، ومما يدل على المعنى -محاكمة المستقبل للحاضر-:

ما صح عن حذيفة قال: ليأتين عليكم زمان خيركم فيه من لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، فقال رجل من القوم: أيأتي علينا زمان نرى المنكر فيه فلا نغيره، قال: والله (لتفعلن)(٦٤)، قال: فجعل حذيفة يقول بأصبعه في عينه: كذبت والله ثلاثاً، قال الرجل: فكذبت وصدق.(٦٥)

فتأمل كيف حاكم هذا التابعي ما نص عليه حذيفة إلى ما يعايشه هو من عزة هذا الدين وأهله في زمنه؟! وكيف أنكر عليه حذيفة مما يبين أن الظرف والواقع مختلف؟!(٦٦).

ومما يدل على أنه لا ينبغي محاكمة النصوص بالواقع الذي يعيشه الإنسان أو الفهم الذي يتبادر إلى ذهنه، فربما وقع على خلاف ما ظن؛ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روته عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا) قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق(٦٧)»

فهذا الحديث لم يفهمه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على حقيقته حتى وقع.

ومما يقع لبعضهم نتيجة محاكمة المستقبل للواقع الحالي أن يتأول تلك النصوص في ضوء ما يعايشه هو، ظنا منه أن الشرط سيكون من جنس ما يراه ويعايشه مع كون النص متضمناً لنقيض هذا، فمن

---

(٦٤) كذا في المطبوع، وفي نسخة "الشثري" أيضاً، وذكر في الحاشية عن بعض النسخ (لنفعلن). انظر مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: الشثري: ٢١/٢٧٦-٢٧٧. رقم (٤٠١٣٢)

(٦٥) رواه ابن أبي شيبة (٧/٤٧٥) ط. دار التارج.

(٦٦) معالم ومنارات:ص١٢٣.

(٦٧) أخرجه مسلم بهذا اللفظ:٤/١٩٠٧، «٢٤٥٢»، وأخرجه البخاري:٢/١١٠، «١٤٢٠» بلفظ آخر عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها: «أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: أينا أسرع بك لحوقا؟ قال: «أطولكن يدًا»، فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدا، فعلمنا بعد أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقاً به وكانت تحب الصدقة» وظاهر رواية البخاري أن المراد بالحديث "سودة " رضي الله عنها، وقد أطال الحافظ ابن حجر في الكلام على هاتين الروايتين ومال في الأخير إلى ترجيح كونها زينب رضي الله عنها. انظر: فتح الباري:٣/٣٣٦-٣٣٨

أمثلة هذه التأويلات السخيفة العجيبة والتي تدل على خيال واسع عند بعض الكتاب في هذا الباب ما قاله أحدهم في كتابه "اقترب خروج المسيخ الدجال ص٢٩" حيث قال:

(بالنسبة لما سيكون مع الدجال من كميات كبيرة من القمح تشبه الجبال، فيمكن تخيله بقيام الشياطين بزراعة مساحات كبيرة من الأراضي الصحراوية تحت الأرض باستخدامهم أساليب زراعية متطورة كالتهجين، وذلك قبل خروج الدجال بعشرات السنوات، ثم تقوم الشياطين بتخزين هذا القمح في صوامع تحت الأرض، وبأسلوب تخزين جيد... إلى آخر هذا الخيال)[٦٨]

٣- ليس شرطاً ربط كل واقعة بالنصوص الشرعية[٦٩].

إن الناظر في الوقائع والحوادث والفتن يجدها كثيرة جداً بحيث يصعب أن تستوعبها ما بأيدينا من النصوص، وبالتالي لا يصح أن نربط بين النصوص وبين تلك الوقائع؛ لأنه يحتمل أن تحصل واقعة ولا نص يدل عليها بعينها، فليس شرطا أن ترد أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة بكل ما يقع من حوادث؛ وذلك إما لانعدام تلك النصوص أصلاً فلم يحدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث في هذه الحادثة أو تلك، أو حدث وترك الصحابة التحديث بها، إما لمصلحة أو لنسيان أو لغير ذلك كما تقدم.

ومن نظر فيما مر بالأمة من أحداث جسام علم صحة هذا، وأن الله قد يقدر على العباد أموراً ولا يخبرهم بها، فقد هدمت الكعبة في عهد الحجاج، واعتدي على الحجيج في المسجد الحرام وأُخذ الحجر الأسود أيام القرامطة، ووقعت الحروب الصليبية، واحترق المسجد الأقصى في ظل الاحتلال، وليس فيما بين أيدينا من النصوص الصحيحة نص على مثل هذه الحوادث، فلا يصح والحالة هذه أن نفتعل صلة بين النصوص وهذه الحوادث فنحمّلها ما لا تحتمل أو نلوي أعناقها لتدل عليها[٧٠].

---

(٦٨) انظر: معالم ومنارات للعجيري: ص١٢٤، وذكر الشيخ محمد إسماعيل أيضا في كتابه بعضا من هذه التخرصات والخيالات.

(٦٩) يقول الشيخ محمد بن إسماعيل (ومن رواد هذا المنهج: "أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغماري" مؤلف كتاب "مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية"؛ الذي تكلف فيه عند تطبيقه بعض أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- على المخترعات الحديثة وتنزيلها على وقائع هذا الزمان، وإن كان وفق في بعضها، على أنه شحن الكتاب بالأحاديث الضعيفة دون تنبيه على ضعفها، لمجرد أن متنها يوافق ما يرمي إليه من المطابقة المزعومة) وذكر أمثلة لهؤلاء المتحمسين لهذه التطبيقات دون تروي ونظر ، انظر: فقه أشراط الساعة:ص١١٨-١٢٢.

(٧٠) انظر: معالم ومنارات للعجيري:ص١٦٣-١٦٤.

وعدم مراعاة هذا الضابط يؤدي بالبعض أن يحاول افتعال واقع معين ليمكن تنزيل النصوص عليه(٧١)، يقول الشيخ محمد إسماعيل (ومن العبث بأشراط الساعة: تكلف بعضهم اصطناع هذه الأشراط، وإيجادها في الواقع عنوة، حتى إن من مدعي المهدية من يغير اسمه واسم أبيه، أو يدعي الانتساب إلى آل البيت الشريف، متناسين أن المنتظر تصنعه المهدية، لكنه لا يصنعها ولا يصطنعها)(٧٢)، ويقول في معرض ذكر شروط صحة ترقب ما سيقع من الأشراط: (أن تبقى هذه الأشراط في دائرة التوقع المظنون دون أن نتكلف إيجادها بإجراءات من عند أنفسنا؛ لأنها أمور كونية قدرية واقعة لا محالة، ولم نخاطب باستخراجها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة)(٧٣).

المطلب الرابع : ضوابط متعلقة بمن يقوم بتنزيل النص على الواقع :

١- الرجوع إلى العلماء في تنزيل النصوص الشرعية.

تنقسم النصوص الشرعية التي تربط وتنزل على الواقع إلى قسمين:

الأول: نصوص ظاهرة وربطها بالواقع ظاهر كذلك، فيمكن للمسلم الذي يفهم النص الشرعي على وجهه أن يربط هذا النص بواقعه وينزله عليه، وهذا من التدبر الذي شرعه الله تعالى لنا في فهم نصوص القرآن، والسنة تبع لذلك؛ قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ [النساء:٨٢]

الثاني: نصوص مشكلة، إما من حيث المعنى أو من حيث الواقع التي تنزل عليه؛ كنصوص أشراط الساعة، والفتن، والملاحم، فهذه يحتاج تنزيلها على الواقع إلى الرجوع إلى العلماء الراسخين في العلم لفهم معناها وتنزيلها على الواقع؛ لأن النصوص الشرعية ليس فيها مشكل من حيث الواقع، بحيث لا يمكن أحد من الأمة أن يعرف معناها، وإنما الوضوح والإشكال أمر نسبي(٧٤)؛ قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾

(٧١) انظر: المراجع السابق:ص١٢٦.

(٧٢) فقه أشراط الساعة: ١١٦.

(٧٣) فقه أشراط الساعة: ٢٥٥.

(٧٤) انظر: فقه أشراط الساعة:ص٢٨٨.

[النساء]، ولذا نجد أن العلماء دائما يتصدون لمثل هذه التنزيلات الخاطئة ويردون عليها ويحذرون الناس منها وبخاصة إذا ترتب عليها أمور عملية، ومن أبرز تلك التنزيلات الخاطئة ادعاء المهدية، يقول الشيخ محمد إسماعيل (إن الله سبحانه وتعالى ينصب الأدلة الواضحة على بطلان وزيف دعاوى المدعين، لكنها قد لا تظهر إلا لأولي العلم الذين اختصهم الله سبحانه بالبصيرة في الدين، ولا تكاد تجد مدعياً المهدية إلا ويكون الله سبحانه قد هيأ له من أهل العلم، من ينقض دعواه، ويكشف زيفه)[٧٥]

٢- التجرد في البحث والخروج عن الهوى :

والمقصود هو التزام الموضوعية في فهم النص، بمعنى أن لا يُخضع النص لأية مقررات سابقة، أو رواسب قديمة، أو مواقف ممهدة سلفاً، أو ضغط الواقع والتأثر بالعصر الذي يعيشه، بل ينبغي أن ينطلق في فهم النص من النص نفسه، ولذا نجد الانحراف الكثير في تنزيل الأحاديث ناتج عن الهوى المضل الذي يعمي صاحبه عن الدليل؛ وخاصة إن كان في هذا التنزيل مصلحة عاجلة من شهرة أو جاه أو مال أو نحوها من عاجل الدنيا، وبعضهم إذا تبين له خطأ ما ذهب إليه بيانا ظاهراً كأن يدعي المهدية في شخص ثم يقتل هذا الشخص؛ فإنه لا يرجع مما يدل على استحكام الهوى على تصرفه واعتقاده[٧٦]

يقول الشيخ عبد الله العجيري (والمقصود أن من أراد أن يلج هذا الباب -أعني باب تنزيل النصوص على الواقع- فيجب عليه أن يلقي على عتبته أهواءه ليسلم له دينه أولاً، ويصح له تنزيله ثانياً، أما أن يبقى على هواه ويريد أن يصح التنزيل فلا، وليعلم أنه سيكون ساعتئذ منزلا لهواه على الواقع لا لنصوص مولاه وأقوال نبيه صلى الله عليه و سلم)[٧٧]

---

(٧٥) معالم ومنارات:ص١١٩، وللشيخ محمد إسماعيل كتاب خاص ألفه في "المهدي" بين فيه حقيقته وأدلته وعلاماته والرد على منكريه، مع عرض تاريخي لمسيرة مدعي المهدية عبر التاريخ مع الإشارة إلى دور العلماء في تزييف تلك الادعاءات على مر العصور.

(٧٦) انظر: مثالاً على ذلك لما جرى في فتنة الحرم المكي حين اقتحم جماعة تدعي المهدية بيت الله الحرام في غرة المحرم عام ١٤٠٠هـ، (انظر: كتاب "المهدي حقيقة لا خرافة" لمحمد إسماعيل:ص١٦٦)

(٧٧) معالم ومنارات:ص١٢٢.

٣- التأني في التنزيل :

والتأني: هو التمهل والتروي، وهي خصلة عظيمة محمودة من خصال الخير التي يحبها الله رسوله، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[٧٨].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إنها ستكون هنات وأمور مشبهات، فعليك بالتؤدة فتكون تابعاً في الخير ،خير من أن تكون رأسا في الشر)[٧٩]

(فلا يصح أن يتعجل الشخص في إصدار حكم على قضية من القضايا قبل تكامل آلة الحكم عنده، فلا بد أن يكون بصيراً بالنص ثبوتاً ومعنى، بصيراً بالواقع، فيصدر حكماً يرجو به أن يكون أقرب للصواب بحسب تكامل تلك الآلة، فيعطي كل قضية حقها ومستحقها من الحكم، فلا يعطي القطعي حكم الظني ولا الظني حكم القطعي، فإن فلتت منه كلمة بان له خطؤها فلا عليه أن يعود إلى الحق فإن العود إلى الحق أحمد، فإن لم يعد واستمرأ الخطأ في هذا الباب فليعلم أنه ممن قد غلبه هواه، وليخش على نفسه مغبة الباطل واستمرائه)[٨٠].

ولنأخذ مثالاً على ذلك من تطبيقات السلف رضوان الله عليهم في (تنزيل المهدية) التي طالما فتنت الناس وأضلتهم؛ فعن عن حفص بن غياث، قال: قلت لسفيان الثوري: (يا أبا عبد الله، إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: إن مر على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه)[٨١]

(ولذا يتأكد التأني والتثبت والتحقق إذا كان التنزيل مما يترتب عليه عمل، فالحكم على نار خرجت من أرض الحجاز أنها مقصودة بالنص النبوي يحتاج إلى أناة حتى لا يكون الإنسان فريسة القول على الله بغير علم، لكن الخطأ فيه أهون بمراحل من خطأ يستلزم عملاً يحدثه المكلف في الواقع أو يترتب

---

(٧٨) متفق عليه من حديث ابن عباس، وهذا اللفظ عند مسلم فقط ، وعنده أيضا الحديث بهذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (صحيح مسلم:«١٧، ١٨»)

(٧٩) مصنف ابن أبي شيبة: ٤٥٦/٧.

(٨٠) انظر: معالم ومنارات:ص١١٤.

(٨١) حلية الأولياء:٣١/٧.

على التنزيل ترك للعمل تواكلاً على القدر، ولحوقاً بحال الشيعة مع مهديهم المنتظر، فالأصل مثلاً في الإسلام الخلطة، والخلطة في الأصل خير من العزلة، فإذا حكم المرء خطأ على زمن بأنه زمان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن)[٨٢] فرتب على ذلك وجوب اعتزال الناس أو مشروعيته كان مخطئا بل منحرفا، كذلك من حكم لفلان أنه المهدي مثلاً فإنه سيوجب اللحوق به ومبايعته ونصرته إلى غير ذلك مما يجب حياله ثم إذا ظهر أنه ليس بالمهدي المقصود فقد وضع الأحكام في غير موضعها ورتبها على أمور متوهمة، وكان خطؤه مضاعفاً: خطؤه في التنزيل وخطأ في العمل)[٨٣]

(٨٢) رواه البخاري: ١/١٣، «١٩».

(٨٣) انظر: معالم ومنارات:ص١١٧.

الخاتمة

وفي نهاية هذه الورقة فإن أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها ما يلي:

١- أن الآفاق المعاصرة والمستقبلة التي يمكن أن تفتح لتنزيل السنة على الواقع متعددة ورحبة وهامة في الوقت نفسه، ومن ذلك:

٢- آفاق تنزيل السنة على العلوم العصرية، وتنزيل السنة على الفتن والملاحم وأشراط الساعة، وتنزيل السنة على القيم الحضارية.

٣- أن تنزيل السنة على الواقع جزء من رسالة القرآن والسنة والتي فيهما الهداية والخير لكل زمان ومكان.

٤- أن عملية تنزيل السنة على الواقع من دون مراعاة الضوابط العلمية؛ أدى إلى فوضى عارمة وخوض بلا علم في نصوص الوحي؛ مما أدى إلى خروجها عن هدفها الأسمى وهو الهداية للبشرية.

٥- أن الضوابط العلمية لا بد أن تكتنف كل أركان التنزيل؛ حتى يكون تنزيلاً صحيحاً، فتضبط: منهج التنزيل، والقائم به، والواقع المنزل عليه.

٦- وأوصي في ختام هذه الورقة الباحثين في السنة المشرفة إلى بذل المزيد من الجهد في توصيل رسالة السنة إلى الناس في كافة تخصصاتهم واهتماماتهم، مع القيام بحراسة هذه السنة من عبث العابثين وتعالم المتعالمين حتى لا تخرج عن هدفها العظيم وهو الهداية إلى الصراط المستقيم.

The projection of prophetic Tradition Upon the Reality

Prospects and standards

Prepared by

Dr. Solaiman bin AbdoAllah Al-Saif

Associate professor, specializing of Prophetic Traditions

The Summary

This research is summarized in pointing to some fields which I can Project the Text of Sunna (prophetic traditions upon them. For example: Modern sciences, disorders and fighting epics, signs of the Day of Judgment, and the civilizational values. In addition, I well detail the scientific standards of the Holy Quran and the Prophetic traditions, as well as the approach of scholars in the projecting upon the disorders and fighting epics, signs of the Day of Judgment.

This detailing includes that the projecting of Sunna's text will be away of error and deviation, on the contrary, it will be nearer to the right.

These standards included the pillars of the process of projecting. The pillars of projecting are: the reveled text, method of revelation, the reality which we will project upon it, and the person who will practice projecting.

فهرس لأبرز المراجع المتعلقة بموضوع البحث

١." الإشكالات المعاصرة في فهم السنة النبوية: اتباع الهوى، الجهل باللغة العربية" بازمول: الدكتور محمد بن عمر. بحث منشور في ندوة "فهم السنة النبوية" الضوابط والإشكالات. والتي أقيمت في الرياض بتاريخ: ١٤٣٠/٦/٤.

٢.تنزيل الآيات على الوقع عند الإمام ابن القيم. الدكتور: زمزمي، يحيى عبد الله. (أستاذ مشارك بجامعة أم القرى) بحث منشور على الشبكة العالمية.

٣.الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل. ضناوي، لمحمد علي . بحث مقدم للقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي بعنوان" الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم". الرياض.١٣٩٩هـ.

٤.الحضارة الإسلامية. الميداني، عبد الرحمن حبنكة. ط١. دمشق. دار القلم. بيروت. الدار الشامية. ١٤١٨هـ.

٥.خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل. التويجري، عبد العزيز بن عثمان. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة(إيسسكو).١٤٢٣هـ.

٦.الدليل التصنيفي. سعيد، همام عبد الرحيم. جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية- المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب الأردن). عمان. ١٤١٤هـ.

٧.السنة مصدر للحضارة، وسائل السلامة أنموذجا. السيف، سليمان بن عبد الله. بحث منشور في مجلة معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي. جامعة أم درمان الإسلامية. السودان.

٨. العراق في أحاديث وآثار الفتن. آل سلمان: أبو عبيدة مشهور بن حسن. ط١ مكتبة الفرقان. الأمارات – دبي. ١٤٢٥هـ.

٩.علماء الشريعة وبناء الحضارة. الطريقي، عبد الله بن إبراهيم. ط١. الرياض. دار المسلم. ١٤١٨هـ.

١٠. فقه أشراط الساعة. المقدم:محمد بن أحمد بن إسماعيل. ط٦. الدار العالمية. مصر. ١٤٢٩هـ.

١١. " فهم السلف وأهميته في فهم السنة" الشيخ: الدكتور عبد الله بن وكيل. بحث منشور في ندوة "فهم السنة النبوية" الضوابط والإشكالات. والتي أقيمت في الرياض بتاريخ: ١٤٣٠/٦/٤.

١٢. "اللغة العربية وأهميتها في فهم السنة" الشيخ: الدكتور عبد الله بن وكيل. بحث منشور في ندوة "فهم السنة النبوية" الضوابط والإشكالات. والتي أقيمت في الرياض بتاريخ: ١٤٣٠/٦/٤.

١٣. المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية. الحداد، أ.د محمد حمزة إسماعيل. ط١. مصر. مكتبة زهراء الشروق. ٢٠٠٥م.

١٤. معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم. العجيري، عبد الله بن صالح. بحث منشور على موقع "الدرر السنية" على الشبكة العالمية.

١٥. المهدي حقيقة لا خرافة. المقدم: محمد بن أحمد بن إسماعيل.ط٤. دار الإيمان. الإسكندرية. ١٤١٣هـ.

١٦. موسوعة الحضارة الإسلامية. شلبي. أحمد. ط٩. القاهرة. مكتبة النهضة. ١٩٩٣م.

١٧. ندوة السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة. مؤسسة آل البيت بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن. عمان. ١٥- ١٩/ ذي القعدة/ ١٤٠٩هـ.